حسن . م . يوسف يرسم حياة فاتح المدرس بالكلمات

لم يتوقف عن الرسم إلا قبل شهر واحد من رحيله ودفن بناء على وصيته إلى جانب نزار قباني

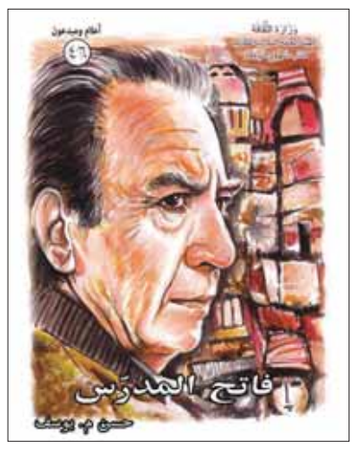

| وائل العدس

في الجزء السادس والأربعين من سلسلة «أعلام ومبدعون» الشهرية الموجهة لليافعة، أصدرت الهيئة العامة السورية للكتاب – مديرية منشورات الطفل كتاباً يسلط الضوء على حياة الفنان التشكيلي فاتح المدرس من تأليف الكاتب حسن م يوسف مؤلفاً من ٥٩ صفحة من القطع الصغير.

ووفقاً للكاتب الشهير فإن فاتح المدرس لم يكن رساماً موهوباً وحسب، بل كان مبدعاً شمولياً، يرتجل العزف على البيانو ويكتب الشعر والقصة، فهو يعزف مثلما يرسم، ويطبخ كما لو أنه يصنع لوحة.

ويرى المدرس أن العمل الفني من أعسر المهمات التي أخذها الناس على عاتقه، وهو يمضي قدماً على سلم الحضارة المرتفع، وإن هذه المهمة، مهمة تغيير شكل العالم دفعت الفنان والعالم أن يعملا معاً.

واستعرض الكاتب مراحل حياة المدرس وسنيه السبع والسبعين التي عاشها وأحرز من خلالها شهرة واسعة واحتل مكانة عالية في تاريخ الفن التشكيلي السوري والعربي، إذ لم يسبق أن أحرز مثيلاً لها فنان في هذا المجال، إذ نجح في إبداع لوحة خاصة به تشكل امتداداً لشخصيته الفذة المغامرة، فلوحته تقتحم ذاكرة المشاهد وتحرره من عادات الرؤية التقليدية، كما تطلق أشواقه الخبيئة وتحفزه كي يراها ويرى العالم بشكل مختلف، ولهذا قال عنه الأديب السوري أدونيس: «إن إبداع فاتح المدرس في تاريخ الحركة التشكيلية السورية، يمثل معيارية كلاسيكية عالية، يؤرخ بها، ويقاس عليها.. لا نعت يليق بإبداع فاتح المدرس، ويفصح عنه إلا الأسطوري».

وإليكم بعض الومضات التي تضمنها الكتاب.

طفولة يتيمة

ولد فاتح المدرس عام ١٩٢٢ في قرية حريتا في ريف حلب وسط بيئة فلاحية تجمع مزيجاً من العرب والكرد والتركمان، وينحدر والده من أسرة عربية معروفة بنفوذها الإقطاعي، أما والدته فكانت من أصول كردية.

قُتل والده وهو طفل لم يتجاوز عمره اثنين وعشرين شهراً إثر معركة خاضها بمفرده ضد خمسة عشر عنصراً من قطاع الطرق، وبعدها عاش مع أمه طفولة شقية محرومة، متنقلاً في قرى الشمال عند أخواله، وقد تركت تلك السنوات أثرها العميق في وجدانه وسلوكه الاجتماعي وإنتاجه الفني والأدبي.

تعلق فاتح في طفولته بأمه وأعجب بها حتى صار ينظر إليها كما لو أنها قطعة من المكان، وقد عبّر عن حبه لأمه عبر كل فعالية قام بها على مدى عمره الطويل، كما انعكس تعلقه بأمه على نظرته الإيجابية للمرأة بشكل عام.

غادر حياة الريف وهو في الثامنة ليقيم عند أعمامه بحي الفرافرة بحلب، وهو حي يضم مجموعة من العائلات الأرستقراطية، لكنهم عندما خيروه فضل الإقامة مع والدته في أحد البيوت البسيطة في حي باب النصر، وحين دخل المدرسة الابتدائية اكتشف أستاذ الرسم شريف بيرقدار موهبة فاتح المتميزة.

موهبة مبكرة

أظهر فاتح منذ طفولته الأولى مهارة في الرسم وميلاً إلى الموسيقا إلا أن مواهبه هذه لم تلق أي تشجيع من أهله.

وعندما دخل المرحلة الثانوية ازدادت ممانعة أهله لكن تلك الممانعة لم تزده إلا تعلقاً بالفن، وقد ساعدته الظروف في تنمية موهبته وإبقائها تتدفق من داخله كنبع صاف.

توجه فاتح إلى القراءة المكثفة من دون مرشد أو ناصح ولا برنامج ولا دليل، فقرأ كتب ابن سينا الطبية وشيئاً من كتب محي الدين بن عربي وأشعار طاغور والمهابهاراتا الهندية، كما قرأ قصص الخيال العربي.

انتقل للدراسة في الكلية الأميركية في حلب على أمل أن تتاح له فرصة دراسة الطب في الجامعة الأميركية ببيروت لاحقاً، لكن إدارة الكلية فصلته لمشاركته المتكررة في التظاهرات ضد الاستعمار الفرنسي.

سافر إلى عاليه بلبنان لمتابعة دراسته في الجامعة الوطنية وهناك تعرف على الأديب مروان عبود الذي كان معلماً وصحفياً وناقداً وقاصاً وكاتباً وشاعراً، وقد اكتشف المواهب الأدبية والفنية التي يتمتع بها فاتح فنشأت بينهما علاقة متميزة هي أقرب إلى الصداقة رغم فارق العمر وطبيعة علاقة الطالب بالأستاذ.

في عاليه تطورت لغة فاتح الإنكليزية فراح يطلع على الأدب العالمي ويدرس تاريخ الفن ومدارسه الحديثة، وعقب تخرجه في الجامعة الوطنية عاد إلى مدينته حيث عمل مدرساً للغة الإنكليزية والتربية الفنية، وبدأت مشاركاته الفنية تظهر إلى جانب إسهاماته الأدبية في الشعر والقصة التي كان ينشرها في الصحف والمجلات، وقد نشرت قصيدة بعنوان «الأمير» في مجلة «القيثارة» في اللاذقية عام ١٩٤٦ وفي تلك المرحلة تعززت علاقته بالشعراء والمثقفين المعروفين.

عفوية الفرشاة

في تلك المرحلة قادت روح التمرد فاتح المدرس نحو آفاق جديدة، ودام انغماسه في المرحلة السريالية منذ عام ١٩٤٧ حتى عام ١٩٥٦ لكنه سرعان ما تخلص منها وعاد إلى طبيعة ريف الشمال السوري.

لم يجد هويته الفنية المميزة وأسلوبه الخاص بسهولة، فالهوية على حد قوله كالحرية تصنع صنعاً، وإذا لم نصنعها نظل عبيداً لمعارفنا وثقافتنا السابقة والقديمة.

اعتمد في تلك المرحلة على عفوية ضربات الفرشاة بعيداً عن التمثيل الواقعي للأشياء، وفي عام ١٩٥٠ أقام المعرض الأول لأعماله في نادي اللواء بحلب، وبعد عامين شارك في معرض الصداقة في نيويورك، كما شارك في المعرض الثالث للفنون التشكيلية في المتحف الوطني بدمشق، وقد كان لهذه المشاركة أهميتها الكبرى إذ نال الجائزة الأولى في التصوير عن لوحته «كفر جنة»، ثم تتالت الجوائز من داخل الوطن العربي وخارجه.

في عام ١٩٥٤ وضع مؤلفاً من ثلاثة أجزاء عرض فيها موجز تاريخ الفنون الجميلة ليكون مرجعاً لأساتذة مادة الفنون في المدارس السورية.

عام ١٩٥٧ سافر إلى روما لمتابعة دراسته ومن حسن حظه أن أشرف على دراسته الفنان الإيطالي فرانكو جنتليني الذي كان من أعظم فناني إيطاليا آنذاك.

وقد فاز بالجائزة الأولى من أكاديمية الفنون الجميلة في روما، وفاز بالميدالية الذهبية التي يمنحها مجلس الشيوخ الإيطالي كما أقام عدة معارض في إيطاليا وأميركا والسويد وألمانيا.

أثناء دراسته في إيطاليا التقى الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر فترافقا لعشرة أيام، تحاورا خلالها في الفن والسياسة وكل شيء، وقد ترجم سارتر إلى الفرنسية أربع قصائد كتبها المدرس بالإيطالية. كما اقتنى ثلاث لوحات من المعرض الشخصي الذي أقامه لفاتح في غاليري «شيكي» عام ١٩٥٩ في روما.

دراسات عليا

عقب عودته إلى الوطن بفترة قصيرة، عُيّن معيداً في كلية الفنون الجميلة بدمشق عند إحداثها عام ١٩٦١.

وبعد عمله لفترة في التدريس سافر إلى فرنسا عام ١٩٦٢ لمتابعة دراسته العليا في أكاديمية الفنون الجميلة في باريس ونال الدكتوراه عام ١٩٧٢.

وبعد عودته إلى سورية عُيّن أستاذاً للدراسات العليا في كلية الفنون الجميلة بجامعة دمشق عام ١٩٧٧، وأصبح مرسمه وسط دمشق مركز إشعاع ثقافي واجتماعي تلتقي فيه كل القوى الحية في المجتمع من ساسة وأدباء وصحفيين ونقاد ومسرحيين ومغنين وراقصين وفنانين تشكيليين من مختلف المدن والبلدان.

وخلقت تجربة المدرس حالة توازن نادرة في الفن العربي، فهي تجربة شخصية واقعية من غير أن تكون كذلك كلياً، وهي تجربة تجريدية من غير أن تكون كذلك تماماً، وهي تجربة مرحة من دون فرح، ومأساوية من دون كآبة.

لم يكن فاتح المدرس يعيش في برج عاجي بعيداً من هموم وطنه، بل كان يتصدى في أعماله لمختلف القضايا الإنسانية والوطنية، فقد تناول مأساة فلسطين ونكسة حزيران والحرب الأهلية في لبنان وغيرها من الأحداث القومية، كما تناول القضايا الثقافية والتاريخية.

كتب فاتح الشعر فلقب بشاعر الرسامين وكان قريباً من الشعر في لوحاته فلقب برسام الشعراء.

وشارك في تأسيس نقابة الفنون الجميلة وانتخب نقيباً لها لمدة ١١ عاماً وظل يعمل أستاذاً محاضراً في كلية الفنون الجميلة إلى أن أحيل على التقاعد عام ١٩٩٣.

نهاية الرحلة

لم يتوقف فاتح المدرس عن الرسم في محترفه في ساحة النجمة بدمشق إلا قبل شهر واحد من رحيله في الثامن العشرين من حزيران عام ١٩٩٩، وقد شيع في جنازة مهيبة، ودفن بناء على وصيته في مقبرة «الباب الصغير» إلى جانب الشاعر الكبير الراحل نزار قباني.

«ألف نون» تحتفي بـ«عزلة الحلزون»

خليل صويلح لـ «الوطن»: أسئلة معلقة عن التاريخ المزوّر

| سارة سلامة

في رحم «ألف نون» يتجلى الإبداع في أبهى صوره من خلال اللوحة والمنحوتة والكتاب، هذا المكان الذي أصبح أشبه بنواة تجذب إليها كل مبدع، وضمن ظلالها وقع الأديب خليل صويلح روايته الجديدة التي حملت عنوان «عزلة الحلزون»، التي تحمل مسارات فكرية تحكي عن عزلة الإنسان وربما تطارد أثر الحرب التي تعكس بعمق مأساة من يعيشها في الداخل كل ذلك كان بأسلوب سردي غير مباشر.

أسير لحظة

وفي تصريح خاص لـ«الوطن» قال الكاتب خليل صويلح: «إن رواية (عزلة الحلزون) تذهب إلى فحص الهويات الملتبسة في لحظة تاريخية حرجة، وتستدرج أسئلة معلّقة عن التاريخ المزوّر والقسوة وطبقات اللغة واللهجات. تصل الراوي الذي يعمل مدققاً لغوياً في موقع إلكتروني وفي دار نشر تراثية رسالة من صديقة تتهمه بالقسوة، هذا الاتهام سيقوده إلى استرجاع تاريخ أجداده الذي يحتشد بحكايات الغزو ومديح القسوة، فيكتشف تواريخ مزوّرة ووقائع ملفّقة لم تحدث، عن قطّاع طرق يعيشون لحظة متوحشة وبهيمية، تبعاً للأسماء التي أهداها الجد الأكبر لسلالته العائلية، إذ تتوزع هذه السلالة بين من يحمل قلب ذئب ومن يحمل قلب طائر. سيبقى الراوي أسير لحظة تشبه تاريخ أجداده، وكأنه لم يغادر تلك الصحراء القاسية، وتالياً فإن هذه الرواية تقرأ التاريخ والتراث من منظور مختلف باتكائها على حكايات متوالية تشكّل مجتمعة جدارية تنطوي على فضح ما هو مستور بمكاشفات تتعلق بأحوال الجسد والرغبة والغريزة».

وبيّن صويلح: «أنه ومن ضفة أخرى فإن هذه الرواية محاولة في فحص اللغة نفسها وضرورة تقشيرها من فائض البلاغة الجوفاء والانتهاك الإنشائي، وتالياً مقاومة لغة العنف بلغة محسوسة وبصرية لا تقبل المراوغة أو عمليات الفوتوشوب الإيديولوجية. والحال سنحتاج وقتاً طويلاً للنجاة من أعباء النص الطارئ للحرب، قبل الغوص في بئر آثامه العميقة، وتنظيف هذه البئر من شوائب الاعتداء على مفاهيم السرد، بقوة الموقف من الحرب وحسب. أما عنوان الرواية فأتى توصيفاً لكائن يعيش في قوقعته خوفاً وريبةً وعزلة».

جسر للجودة

ومن جهته قال الفنان بديع حجحاج: «منذ بدأنا بالحرب تعهدنا أن نكون جسراً للنوعية والجودة والإبداع والقيمة والإنسان، والآن نوقع «عزلة الحلزون» للأديب خليل صويلح ونحن نفخر به حقاً لأنه إذا وجد خمسة روائيين في سورية فاسم خليل محفور بينهم، من خلال أسلوبه في عملية سبك الشخوص والأحداث والأزمنة والأمكنة وقدرته أن يكون مايسترو في عملية نشر المفردات ومؤداها من جانب الوعي، وأرى أنه دائماً يصيب في كل منفذ هو تحرر منه، مثل رواية (وراق الحب) و(سيأتيك الغزال) و(اختبار الندم)».

سبر للأعماق

بينما قال الصحفي زيد قطريب: «الصورة الأولية عن الرواية أنها ممكن أن تكون تكملة لرواية (اختبار الندم) التي فازت بجائزة الرواية العربية، وتناولت المجتمع الخارجي بعلاقاته، وأثر الحرب في هذه العلاقات وبعزلة الحلزون، ومن العنوان أتصور أن خليل دخل إلى جوانية الإنسان نفسه وحاول أن ينبش بداخله عن أثر هذه المرحلة ويرى انفعالاته وأمراضه وأوهامه، وأين أخفق وأين نجح، وتحتوي على سبر للأعماق، وتشكل إضاءة لذاتية الإنسان، وربما فيها نوع من القراءة النفسية وتسبر أغوار النفس الإنسانية خاصة بعد سنوات الحرب ومدى تأثرها وإخفاقها، ومن العنوان نلحظ أنها توحي للانطوائية والعزلة عزلة الحلزون داخل هذه القوقعة بهذا الإطار».

هرمينوطيقا.. سرد ما بعد الحداثة.... دراسة في ثلاثية «معرض مؤجل» الروائية لهزوان الوز

| جُمان بركات

طرح بول ريكور مشروعاً سردياً كبيراً ومعقداً يجمع بين الأنطولوجيا والتاريخ والهرمينوطيقية والسرد والهوية السردية والمتخيل التاريخي والسيري، وفي هذه التوليفة المتنوعة والمختلفة عمل على البحث عن نقطة تجمع بين هذه الحقول على أساس المغايرة والتماثل، ولكن النقطة التي تجمعت بها عنده وشكلت المشترك هي عنصر الزمان، وحاولت الفلسفة الريكورية أن تقاربه من حيث آليات الكوني والنفسي والاتصال والانقطاع وفي الخطاب التاريخي والسيري حيث تجلى في فعالية إحضاره وإعادة إنتاجه من جديد على أساس منطق الذاكرة والتوثيق أو الأرشفة، لكن المشروع الريكوري المخالف على هذا النحو تمثل في تحويله لمشكلة الزمان من إشكالية أنطولوجية إلى إشكالية سردية عمادها النصوص السردية المختلفة.

«معرض مؤجل»

اختار الباحثان العراقيان د. محمد صابر عبيد ود. محمود خليف خضير الحياني ثلاثية د. هزوان الوز «معرض مؤجل» وقدما كتاباً نقدياً بعنوان «هرمينوطيقا... سرد مابعد الحداثة» –الصادر عن دار كنانة– والذي جمع بين السيرية والسردية، فكانت هوية سردية اشتغلت على أسس توسطية تبلورت في مقولة المتخيل التاريخي، إذ انطوت هذه الثلاثية على أبعاد جمعت بين الهوية والانتماء واللاانتماء والحب والواجب والجسد والروح والاغتراب واللااغتراب والدين واللادين، شبكة من المفاهيم حملت مشكلة وطن وهموم شعب تحدى كل الصعاب لكي يستمر في إنتاج معنى الوطنية الذي أحبته شخصيات في مجريات أحداث هذه الثلاثية الروائية، بكل ما يحمله واقعها من هموم وألم ومعاناة وقناعات وأسئلة وسياقات فكرية ورؤيوية وعقائد وتمردات وشطحات.

في رؤية منهجية عنوانها «هرمينوطيقية سرد ما بعد الحداثة» قدم الباحثان ثلاثة مباحث، الأول الهرمينوطيقا لغة واصطلاحاً والذي يتلخص بمصطلح التأويلية المستجيب لمشروعية القراءة

السردية أو سرد ما بعد الحداثة، ويقوم على أساس فلسفي وأنطولوجي بعيداً عن تعالقه مع المصطلح العربي المقابل للتأويل المرتبط بالجانب الديني أو اللاهوت العقائدي وهو ما يخالفه المنظور الجديد لمصطلح الهرمينوطيقا الذي تنصهر فيه الأبعاد الوجودية والظاهراتية والرمزية بالنسبة لما يرتبط بفلسفة ريكور على الأقل.

والمبحث الثاني «سرد مابعد الحداثة» التي تعمل على تجاوز الشخصية الفيزيقية أو التاريخية المتماهية مع الواقع لتتحول إلى مدلول يبعدها عن الوضوح والوصف، والسردية بوصفها وسيطاً يمكن تأويله والوصول عن طريقه إلى فهم الذات.

والثالث «المتخيل التاريخي: الطريق الملتوي للهرمينوطيقا»: عندما حاول ريكور البحث عن تجسيدات الزمان وجد أنه يتم التعبير عنها في التاريخ وكذلك في السردية.

رواية الأجيال

«رواية الأجيال» مصطلح ألحق بشبكة المصطلحات التي توصف أنواع الرواية الحديثة استناداً إلى استجابتها لضرورات تقانية وموضوعية مختلفة، بعضها اضمحل أو لم يلق بالاً على المستوى التداولي والبعض الآخر أثبت حضوره. إن فكرة تعاقب الأجيال وهي تمثل حياة متكاملة للمجتمعات والعصور ترصد التحولات والتطورات التي تحصل في حضور كل جيل جديد، إذ تسهم «رواية الأجيال» على هذا النحو في حساب الحياة الإنسانية عامة في تطورها وتغيرها الدائمين ضمن إطار الزمن الحسابي، إضافة إلى مقاربة أزمان وأمكنة وأحداث وقيم إنسانية متعددة وكثيفة لتمثيل عالم شاسع ومتعدد ومتنوع، وتخلق عالماً روائياً خاصاً.

تنتمي رواية هزوان الوز «معرض مؤجل» بأجزائها الثلاثة «اللوحة الناقصة، اللوحة الضائعة، اللوحة الثالثة» لما يصطلح عليه «رواية الأجيال» التي تتألف عادة من أجزاء عدة، كل لوحة هي عبارة عن «موصوف» خبري مسند إلى صفة خاصة به، حيث تتكامل الصفات لأجل الاستجابة للرؤية السردية العنوانية التي تشتغل عليها الرواية، وهذا السرد المثلث للرواية يعكس أهمية هذا العدد في الثقافة الإنسانية منذ أقدم العصور، لكنه في الرواية يسعى إلى استيلاد معنى جديد للعدد قائم على تفاعل الصفات وتكاملها في منظومة سيميائية متوالدة.

السرد

جاء الفصل الأول للكتاب بعنوان «الحياة نقطة رسو سفينة السرد» وفيه يحكي عن تفكيك العلاقة بين الحبكة والحياة في ثلاثة مباحث الأول: يعالج الباحثان فعل الحبكة بوصفه نصاً مؤولاً عند هزوان الوز الذي ينظم الأفعال السردية في روايته باختياره قضية الاستلاب والخوف بوصفهما علامتين أو تابوهين ينظمان علاقة الشخصيات مع العالم أو الحياة، ففي إشارته إلى الاستلاب وما يفعله الخوف وتسلط القوة يكشف عن طبيعة هذه الرؤية ومستويات تأثيرها.

وينطلق المبحث الثاني بعنوان «الزمان والبيئة ثالوث المحاكاة» من ثلاث حكايات في ثلاث بيئات مختلفة، هذه البيئات «الشامية والأميركية والبيئة المؤدلجة» تعمل على تأطير الزمان والمكان في الرواية، وفي رواية هزوان الوز تشتغل البيئة المؤدلجة الحاضرة أيديولوجياً داخل المقولة السردية الغائبة مكانياً أو جغرافياً، وهي الشيوعية التي شكلت لحظة من المعايشة لكل أفكارها، والتي لم تطبق في جميع مساحات الرواية إلا في بيت رامي على مستوى التمثل الفكري والسلوكي المقيد في حدود مكانية وفكرية.

والمبحث الثالث جاء بعنوان «السرد بوصفه فهماً أنطولوجياً» ويركز فيه الباحثان على الفهم الأنطولوجي في «معرض مؤجل» الذي يتخذ أبعاداً كثيرة، وأهمها العناية بالجانب السيري الذي أطلق عليه ريكور الهوية السردية.

حارس الزمان

يتطرق الفصل الثاني «السرد حارساً للزمان» إلى أن الزمان قضية ديمومة، وهناك من ذهب إلى أنها فواصل وانقطاع، وبعضهم حددها بمفهوم التناهي واللاتناهي أو بوصفها بعداً رابعاً للمعرفة أو الوجود.

إن التجربة الإنسانية التي يمثل وعاءها الزمن يتم اختزالها في تجربة قصصية في ما يمكن أن تتحدد بلحظة التصوير السردي، ولا يمكن التفكير في الزمان أو الوجود إلا بوساطة السرد، وعلى هذا الأساس فإن الزمان يتجلى في مصطلحات ترتبط بالذاكرة والنسيان والتاريخ وعالم السرد.

يرصد الباحثان في المبحث الأول من الفصل الثاني التجربة السردية والذاكرة، ويأتي الثاني لمعاينة ماوراء الحبكة المأساوية، أما في المبحث الثالث فتتم معالجة أنطولوجيا الحب والواجب.

أما الفصل الثالث فقد جاء عرضاً للمتخيل الزمني في ثلاثة مباحث: الرغبة والعبثية، وسيزيفية متعة الجسد وسقوطه والمتخيل التاريخي: الأيديولوجيا واليوتوبيا.

في الختام

تحاول الفصول الثلاثة أن تستعير رؤية بول ريكور بمرجعياتها الفلسفية السردية على هذه الثلاثية الروائية لهزوان الوز، في سياق معالجة نقدية تسعى إلى الجمع بين المسار الفلسفي والمسار السردي إذ حاول ريكور تطوير فكرة المتخيل التاريخي على نحو خاص.

إن نقطة ارتكاز السرد في الحياة في ثلاثية هزوان الوز ارتبطت بقدرته على تشغيل أحداث الحبكة لمصلحة الفعل، ومايشير إليه من دلالات كثيرة شرحت واقع الحياة الذي يتصف بجوانب بعيدة عن الإنسانية، ارتبطت في سياق مركزي باحتقار الفقر والضعف وتعظيم الغنى والقوة والسلطة، وهذا ما يمكن أن يؤول على أساس أنه لايوجد هناك احترام للأنسقة الإنسانية ومعانيها التي وجدها رامي في الفن والجمال والحرية.